الكشكول اللغوي (٨)

الوَاقِهُ أَم الوَافِهُ أَم الوَاهِفُ أم الواقف؟

أ. د. رفعت هزيم(*)

الجامع بين هذه الألفاظ الأربعة من حيث الصرف صوغها من الفعل المثال، وكونها أسماء الفاعل من الثلاثيّ، واشتراك ثلاثة منها في حرفَيِ الواو والهاء من جذرها الثلاثيّ، أما من حيث الدلالة فكلها - في المصادر كافةً - بمعنى «قَيِّمُ البِيعة» أيِ الكنيسة. ولا يشكّ المثقفون أمس واليوم - على اختلاف مشاربهم - في صحّتها، ولعلّهم يُرجعون تعدّدها إلى اختلاف اللهجات أو اللغات! والصحيح أن ثلاثة من هذه الألفاظ الأربعة ليست سوى صيغٍ للفظٍ واحد لمْ يرد في العربية إلا في شاهدٍ نثريٍّ وحيد تناقلتهُ - على مرّ القرون - كُتبُ الحديث الشريف والتاريخ ومعاجمُ اللغة بروايات متعدّدة أدّت إلى كتابته بهذه الصيغ الأربع: «الوَاقِهُ والوَافِهُ والوَاهِفُ والواقف»!

وهذا الشاهد الوحيد هو كتاب خاص بأهل نجران - وكانوا من النصارى - منسوب إلى النبيّ ﷺ يبيّن فيه ما لهم وما عليهم، وقد ورد اللفظ في مصادره بروايات مختلفة. ولعلّ أقدم تلك المصادر معجم

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

«العين» للخليل (ت١٧٥هـ) الذي اكتفى بذكر لفظ «الوافه» - بالفاء - مع بيان لغته دون أن يذكر كتاب أهل نجران، فقال: «الوافهُ: القَيِّمُ على بيتِ النَّصارى الذي فيه صليبهم بلغة أهل الجزيرة، وفي الحديث: لا يُغيّرُ وافهٌ عن وَفْهيّته، ولا قسّيسٌ عن قسّيسيته»[(١)]. ويظهر أن أول من أورد نصّ كتاب النبيّ ﷺ لأهل نجران تامًّا هو القاضي أبو يوسف (ت١٨٢هـ) مجيبًا الخليفة هارون الرشيد الذي سأله عن نجران وأهلها، قال: «...وإنّ نسخةَ كتاب النبيّ ﷺ لهم:... ولا يُغيّرُ أُسقفٌ من أُسقفيَّته، ولا راهبٌ من رهبانيّته، ولا كاهنٌ من كهانته...»[(٢)]، فيُفاجأ القارئ بخلوّه من الألفاظ الأربعة! ويليه أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) في كتاب «الأموال» وفحوى الكتاب: «...ولا يُغيّروا أُسقفًا من سقّيفاه، ولا واقها من وقّيهاه، ولا راهبًا من رهبانيته»[(٣)]، أيْ إن الرواية عنده هي «الواقه» بالقاف. ومن الغريب ألّا يُذكر كتاب النبيّ ﷺ لأهل نجران في كتاب السيرة النبوية لابن هشام (ت٢١٨هـ)، ونقل ابن سعد (ت٢٣٠هـ) في كتاب الطبقات نصّ كتاب النبيّ ﷺ لأهل نجران، وفيه: «...لا يُغيّروا أُسقفًا عن أُسقفيَّته، ولا راهبًا عن رهبانيّته، ولا واقفًا عن وقفانيّته...»[(٤)]، أيْ إن الرواية عنده هي «الواقف» بالقاف، أما الألفاظ الثلاثة «الوَاقِهُ والوَافِهُ والوَاهِفُ» فلم ترد فيه البتّة! ولكن الرواية عند البلاذري (ت٢٧٩هـ) في كتاب نجران نفسه هي «الواقه»

(١) العين ٤/٩٦.

(٢) كتاب الخراج ٧٢.

(٣) الأموال٢٩١.

(٤) كتاب الطبقات ٢٤٩، وأورد قبل ذلك ص٢٢٩ نصّ الكتاب المذكور في كتاب الخراج، وهو عنده كتابٌ آخر «لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران».

– بالقاف –، قال: «...ولا يُفتنُ أُسقفٌ من أُسقفيَّته، ولا راهبٌ من رهبانيّته، ولا واقهٌ من وقاهيّته...»[٥]، ثم أورد ابن دريد (ت٣٢١هـ) لفظي «الواهف» و«الوافه»، قال: «والواهفُ سادنُ البِيعة زعموا، وفي الحديث: ولا يُزالنّ واهفٌ عن وِهافته، وقد قُلبَ فقالوا: وافِه»[٦].

ثم نقل مَن جاء بعدهم تلك الروايات، ومنهم الأزهري (ت٣٧٠هـ) الذي أورد ثلاثة من الألفاظ الأربعة، وأغفل الرابع وهو «الواقف» في ثلاثة مواضع ؛ أوّلها: «عن عمرو بن دينار قال: في كتاب النبيّ ﷺ لأهلِ نجران: لا يُحرَّكُ راهبٌ عن رَهْبانيّته، ولا وقاهٌ عن وَقاهيته، ولا أُسْقفٌ عن أُسْقفيّته، شهِدَ أبو سُفيان بن حربٍ والأقرعُ بنُ حابسٍ. قلتُ: هكذا رواهُ لنا أبو زيدٍ بالقاف، والصوابُ: لا يُحرّكُ وافهٌ عن وَفْهيّته ؛ كذلك كتبهُ أبو الهيثم بنُ بُزْرُج بالفاء، والقول الثاني: «... عن ابن الأعرابيّ (ت،٢٣٢هـ) عن المفضَّل أنه قال: الواهفُ قيّمُ البِيعة...»، والثالث: «...قال الليث: الوافهُ: القَيِّمُ الذي يقومُ على بيتِ النَّصارى الذي فيه صليبهم بلغة أهل الجزيرة، وفي الحديث: لا يُغيّر وافهٌ عن وَفْهيّته...، وقال ابنُ بزرج: وافه كما قال الليث، وقد جاء في بعض الأخبار: واقهٌ بالقاف، والصواب الفاء»[٧].

ولم يذكر الجوهري (ت٣٩٢هـ) سوى لفظ «الوافه» مع بيان لغته، قال: «هو قيّم البيعة بلغة أهل الحيرة»[٨]. واكتفى ابن سيده (ت٤٥٨هـ) ثم الجواليقي (ت٥٣٩هـ) ثم الشهاب الخفاجي (ت١٠٦٧هـ) بإيراد اثنين من

(٥) فتوح البلدان ٧٥.
(٦) الجمهرة فوه ٣/ ١٦١.
(٧) التهذيب ٦/ ٣٤٣، ٤٤٨.
(٨) الصحاح [و ف ه].

الألفاظ الأربعة ؛ فقال ابن سيده: «الوافهُ: القيّم على بيت النصارى كالواهف ورتبته الوَفْهيّة بلغة أهل الجزيرة...، والواهف: سادن البِيعة،... وفي الحديث: فلا يُزالنّ واهفٌ عن وِهافته»[٩]، وقال الجواليقي: «الوافهُ القيّم على بيت النصارى...، وقال ابنُ الأعرابيّ: وهو الواهفُ، فكأنهما لغتان»[١٠]، واختصره الشهاب فقال: «واهفٌ ووافهٌ: قيّم بِيعة النصارى، معرّب»[١١].

أما ابن الأثير (ت٦٠٦هـ) وابن منظور (ت٧١١هـ) والفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) والزَّبيديُّ (ت١٢٠٥هـ) فقد أوردوا الألفاظ الثلاثة: «الوَاقِهُ والوَافِهُ والوَاهِفُ»، وأضافوا اللفظ الرابع «الواقف» الذي ذكره ابن سعد، قال ابن منظور بعد أن نقل ما ذكره الأزهري: «وفي كتابه لأهل نجران: وأنْ لا يُغيّر واقفٌ من وِقّيفاه؛ الواقف: خادمُ البِيعة لأنه وقفَ نفسَهُ على خِدْمتها، والوِقِّيفى: الخِدْمة، وهي مَصدرٌ كالخِصّيصى والخِلِّيفى»[١٢].

ومن الغريب أن مُحَقّقي تلك المصادر لم يشرحوا هذه الروايات أو يرجّحوا إحداها، ولم يعلّل أحدٌ منهم انفراد الأزهري بإيراد صيغة «الوُقاه» بدلًا من «الواقه»[١٣]، ماعدا ف. عبد الرحيم مُحقّق كتاب «المعرّب» للجواليقي الذي ذهب - بعد نقل ما ذكرته معاجم المتقدمين - إلى أن «الوافه» أو «الواهف» مأخوذٌ مُقتطعًا ومقلوبًا من hūfadyaqnâ «مُساعد الشمّاس» بالسُّريانية، وهو من hpodiachonos باليونانية، فمن الجزء الأول

(٩) المحكم ٣١٥، ٣١٢.

(١٠) المعرّب ٦٢٦.

(١١) شفاء الغليل ٣١٠.

(١٢) اللسان [و ق ف]، وهو كذلك في «تاج العروس».

(١٣) ومنهم الأكوع الذي نقل النصوص: الوثائق ٩٤-٩٦.

(هوف) جاء (وهف) بالقلب المكاني ومنه: الواهف، ومن (وفه) وافه، أما الواقه بالقاف فتصحيف»[١٤].

ويردُّ هذا المذهب ثلاثة أُمور؛ أوّلها أنّ المصادر تُجمع على أنّ الألفاظ الثلاثة «الوافه» و«الواهف» و«الواقه» عربيّة وليست معرّبة، وثانيها أنّ السُّريانيّة لا تعرف هذه الألفاظ البتّة، وثالثها أنّ الصيغة السُّريانيّة لا تكاد تختلف عن أصلها الإغريقيّ، ولا يمكن أن تكون أصلًا لـ «الوافه» و«الواهف»، زد على ذلك أن الشمّاس=diakonos هو الخادم ورتبته دون «القسيس»، وهو من الفعل ŠammeŠ «خَدَمَ» في السُّريانيّة. أما الـ hūfadyaqnâ فهو – كما يقول القرداحي – «الشمّاس الرسائليّ»[١٥]، في حين أن كتاب نجران يتحدّث عن ذوي المراكز العليا.

أما المسيحيون من المُحْدثين كبطرس البستاني في معجمه «محيط المحيط»، ولويس شيخو في كتابه «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية»، ولويس المعلوف في معجمه «المُنجد» فلم يناقشوا المسألة لاختيار الصواب، بل اكتفوا بنقل ما قاله المتقدّمون! ولكن القرداحي أورد لفظي «الوافه» و«الواهف» ترجمة للفظٍ سُريانيّ آخر هو felmonârâ «قيّم البِيعة؛ ووظيفتهُ felmonârÔtâ الوِفاهةُ والوِهافةُ، وهو دخيل»[١٦] لأنه من الإغريقية – كما يقول بروكلمان – ولكن معناه هو «حارسُ الكنيسة»[١٧]، ثم قرنَ برصوم بين لفظي «الوافه» و«الواهف» ولفظ «الساعور»، قال: «الساعور قيّمُ

(١٤) حاشية المعرّب ٦٢٨.

(١٥) اللباب ١١٧٦، ٣٠١.

(١٦) اللباب ٩٣٥.

(١٧) Brockelmann 598.

المرضى...وخليفة الأُسقف الذي يتفقّد القرى... ويُسمّى periodoto باليونانية وهو fehryadauṭâ = بريودوط في السُّريانية، ومن المعنى الأوّل أو كليهما تُطلقُ عامّةُ نصارى ما بين النهرين لفظة الساعور على قيّم البِيعة، وهو السادن والواهف أو الوافه، ويُسمّيه أهلُ بلاد الشام قندلفت[١٨]؛ أيْ إن الألفاظ الثلاثة: «الساعور» و«الوافه» و«القندلفت» عنده مترادفة.

وتنبّه بعض المستشرقين لما في المصادر من تناقض، فأورد فرنكل Fraenkel أصول الألفاظ الكنسيّة: «البطريك» و«المطران» و«الشمّاس» الدخيلة في العربيّة، وأضاف إليها لفظ «الوافه» - بالفاء - نقلًا عن الجواليقي دون أن يذكر أصله ودلالته[١٩]، في حين جعل دوزي «الواقه» - بالقاف - أصلًا و«الوافه» و«الواقف» تصحيفًا، ولم يذكر من المصادر العربية سوى البلاذري[٢٠]!

ولكن صاحب القول الفصل من المستشرقين في هذا الشأن هو فالتر مولر Walter W.Müller أستاذ اللغات الساميّة في جامعة ماربورغ Marburg في ألمانيا في النصف الثاني من القرن العشرين ؛ فقد لاحظ ورود الجذر wqh في السبئية، ونظيره yqh في العبرية بمعنى «أطاعَ، انقادَ» في كلتيهما، وأشار إلى أن التفسير الشائع لـ «الواقه» - بالقاف - دلالته على مرتبةٍ كنسيّة، وبيّن أنه لا يُعرفُ أصلُ هذا المصطلح ومصدره، وتساءل عن السبب في عدم وروده في أي موضعٍ آخر، ونقل عن أبي عُبيد القاسم بن سلام أنه يعني «وليّ العهد» بلغة بني الحارث، واستنتجَ من ذلك أن «الواقه» ليس

(١٨) برصوم ٨٤، وترجمه القرداحي ثم كوستاز إلى: نائب الأُسقف:اللباب٩٥٤ + كوستاز ٢٨٦.

(١٩) Fraenkel 276.

(٢٠) دوزي ١١/ ١٩٨.

لفظًا كنسيًّا لأنه صاحب الوظيفة الدنيويّة الأعلى في نجران، وهي وظيفة «السيِّد» أو «العاقب» كما ورد في صحيح البخاري، فيكون «الواقه» صاحب وظيفة «الحاكِم» أيِ «الأمير»[٢١]، وأوضحها ابن هشام، فبيّن أن ثلاثة من وفد نجران «إليهم يؤول أمرهم: العاقب وهو أمير القوم...، والسيّد وهو صاحبُ رحلهم ومُجتَمعهم، وأُسقفهم وهو حَبْرهم وإمامهم»[٢٢] ويؤكّد هذا الاستنتاج اقترانُه بالألفاظ الكنسيّة «الأسقف» و«الرّاهب» و«الكاهن» في روايات الحديث الشريف، أمّا لغة «الواقه» فهي لغة اليمن القديم لأن نجران كانت في العصر النبوي جزءًا منه. وأمّا القول إنه بلغة الجزيرة أو بلغة الحيرة فسببه أن أهل نجران خالفوا ما اتفقوا عليه مع النبيّ ﷺ، فأُبعدوا إلى العراق، وأقاموا قرب الكوفة، فسُمّي الموضع «نَجرانيّة الكوفة».

ولابدّ لتوضيح هذه المسألة من إضافة الاسم «القاه» أيِ «الطاعة» من الجذر ق ي ه أو ي ق ه في العربية، وقد روى ابنُ منظور شاهدًا له من الحديث، ونقل آراء المتقدمين في اشتقاقه؛ قال: «...وفي الحديث. أنّ رجلًا من أهل المدينة – وقيل: من أهل اليمن – قال للنبيّ ﷺ: إنّا أهلُ قاهٍ، فإذا كان قاهُ أحدنا دعا مَن يُعينُهُ، فَعملوا لهُ فأطعمهم وسقاهم...، وقيل: معنى الحديث: إنّا أهلُ طاعةٍ لِمَن يَتملّكُ علينا، فإذا أَمرنا بِأمرٍ أو نهانا عن أمرٍ أطعناهُ...، قال ابن برّي: قاه أصلُهُ قَيَهَ وهو مقلوبٌ من يَقَه»،... ابنُ الأثير: ذكرهُ الزمخشريُّ في القاف والياء، وجعلَ عينهُ منقلبةً عن ياء...، الأصمعيّ: القاهُ والأقْهُ: الطاعة، يقالُ: أقاهَ الرجلُ وأيْقهَ...، قال ابنُ بري:

(٢١) Müller, 64-68، وما ورد في الصحيح هو «جاء العاقبُ والسيِّدُ صاحبا نجران إلى الرسول ﷺ...» (صحيح البخاري ٨٢٨).

(٢٢) السيرة النبوية ١/ ٥٧٣.

قاهَ أصلُهُ قَيَهَ، وهو مقلوبٌ من يَقَهَ بدليلِ قولهم: اسْتيْقهَ الرجلُ إذا أطاعَ...، وأيقهَ الرجلُ واسْتيْقَهَ: أطاعَ وذلَّ، وكذلك الخيل إذا انقادتْ، قال المُخَبَّلُ:

فَرَدّوا صُدورَ الخَيلِ حتّى تَنهْنهتْ إلى ذي النُّهى واسْتَيْقهتْ لِلمُحَلَّمِ

أيْ أطاعوا الذي يأمرُهم بالحِلْم؛ قيل: هو مقلوبٌ لأنه قدّمَ الياءَ على القاف»[٢٣].

وينتهي البحث في هذه الألفاظ الأربعة إلى أن اللفظ الصحيح هو «الواقه» - بالقاف - أيْ «وَليُّ الأمر» في العربية الجنوبية الذي يُناظر لفظي «السيّد» و«العاقب» في الفصحى[٢٤] لأن له جذرًا = و ق ه ومشتقات في الفصحى[٢٥] والعربية الجنوبية. وليس الجذر wqh خاصًا بالسبئية وحدها، فقد ورد منه الأفعال wqh «أمرَ» وyqh «يأمر» وtqhw «أطاعوا» والاسم tqh «إنجازُ الأمر» في السبئيّة[٢٦]، والفعل stwqh «كُلّفَ بأمرٍ» في المعينية، والفعل wqh «أمرَ» والاسم qht «أمرٌ» في القتبانية[٢٧]، أما الألفاظ الثلاثة «الوافه» و«الواهف» و«الواقف» فهي مولدة من التصحيف والتحريف، فـ«الوافه» تصحيف من «الواقه» أو مقلوب من «الواهف»، و«الواقف» تصحيف من «الواهف»، فالعربية لا تعرف الجذر و ف ه البتّة، فيكون «الوافه» موضوعًا مختلقًا، و«الواهف» صفة النبات إذا اخضرَّ وأورق واهتزَّ، ولا تعرف العربية له دلالة دينية، فيكون منتحلًا، و«الوَقف» مصطلحٌ خاصٌّ

(٢٣) اللسان والتاج ق ي ه وي ق ه.

(٢٤) انظر: صحيح البخاري ٨٢٨، و:اللسان.

(٢٥) ورد الجذر [و ق ه] في اللسان والقاموس والتاج ولكنه لم يرد في م. الوسيط!

(٢٦) المعجم السبئي.

(٢٧) Arbach103.

بالإسلام، فيحتاج تفسير «الواقف» بالمعنى الكنسيّ «خادم البيعة» إلى بيّنة.

ويتساءل المرء: كيف غفَلَ أصحاب معاجم اللغة وكُتب الحديث الشريف والتاريخ والتصحيف والتحريف عن ذلك كلّه؟ والردّ: لسببين اثنين؛ أحدهما: ورود تلك الألفاظ في كتابٍ منسوبٍ للنبيّ ﷺ، فتقبّلوا تلك الروايات تعظيمًا لصاحبها ﷺ، والآخر: لأنهم وثقوا بأن تلك الألفاظ «بلُغةِ أهل الجزيرة» أو «بلغة الحيرة» التي لا يعرفونها، فإن كان المراد أنها الآراميّة أو إحدى لهجاتها كالسُّريانيّة أو النبطيّة أو التدمريّة أو المنداعيّة أو الحضريّة فالصحيح أن الألفاظ الأربعة لا ترد فيها البتة!

وإنْ أتانا أحدّ بشواهد من الشعر أو النثر من عصر النبوّة أو ما بعده تؤكّد روايات المصادر وشروحها فلا بدّ حينئذٍ أن يُطوى هذا البحثُ، وأن يُقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] صدق الله العظيم.

* * *

المصادر والمراجع

- **بالعربية:**
- ابن الأثير، مجد الدين: النهاية في غريب الحديث والأثر، القاهرة ١٩٦٥.
- ابن دريد: الجمهرة، حيدر آباد ١٣٤٤.
- ابن سعد الزهري: كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمّد عمر، ط١ القاهرة ٢٠٠١.
- ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الستار فرّاج، ط١ القاهرة ١٩٦٨.
- ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت.
- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط٢ بيروت ١٩٧١.
- أبو عبيد، القاسم بن سلام: كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، ط٢ القاهرة ١٩٧٥.
- أبو يوسف القاضي: كتاب الخراج، بيروت ١٩٧٩.
- الأزهري، أبو منصور: تهذيب اللغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ومحمود فرج العقدة، القاهرة ١٩٦٤.
- الأكوع، محمّد بن علي: الوثائق السياسيّة اليمنيّة مِن قُبَيْل الإسلام إلى سنة ٣٣٢هـ، بغداد ١٩٧٦.
- البستاني، بطرس: محيط المحيط، بيروت ١٨٧٠.

- البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمّد رضوان، بيروت ١٩٨٣.
- الجواليقي، أبو منصور: المعرّب من الكلام الأعجميّ، تحقيق ف.عبد الرحيم، دمشق ١٩٩٠.
- الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت ١٩٧٩.
- الخفاجي، شهاب الدين: شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تحقيق محمد كشاش، بيروت ١٩٩٨.
- الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد ١٩٨٥.
- دوزي، رينهارت: تكملة المعاجم العربية ، ج١١ ترجمة محمد سليم النعيمي، بغداد ١٩٨٢.
- الزَّبيديُّ، محمّد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت ١٩٦٥-٢٠٠١.
- شيخو، لويس: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، بيروت ١٩٢٤.
- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ٤ مجلدات، بيروت، د.ت.
- القرداحي، جبرائيل: اللُّباب قاموس سرياني عربي، ط٢ حلب ١٩٩٤.
- المعجم السبئي: أ.بيستون، ج. ريكمانز، م. الغول، و. مولر، بيروت ١٩٨٢.
- المُنْجد في اللغة والأعلام: ط٢٨، بيروت ١٩٨٦.

- باللغات الأجنبية:

- Arbach,M.:Lexique Madhabien.Aix - en - Provence 1993.
- Brockelmann,k.: Lexicon Syriacum.1928, Neud.Hildesheim 1966.
- Fraenkel , S.: Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen. Leiden 1886, Neud. 1982.
- KBL = L. Koehler & W. Baumgartner: Hebräishes und Aramäisches Lexikon zum Alten Testament. 3 Auflage. Leiden 1967-1995.
- Müller, Walter W.:Zwei sabäische Votivinschriften an die SonnengÖttin, in:ṣayhadica, 1987 (pp.57-73).